# الباب الاول

## فى أمور عامة لابد من معرفتها

السؤال الأول : ما حكم الذاهب إلى القبور لسؤال أصحابها ودعائهم وندائهم وسؤال الله تعالى بهم والاستغاثة بهم فى جلب النفع ودفع الضر للمستغيث والسائل

السؤال الثانى : هل يوجد فى كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، أو عمل أصحابه أو الذين اتبعوهم باحسان ، أو عمل أو قول الأئمة المجتهدين أن الأمور المذكورة فى السؤال الأول يجوز فعلها لأحد من الناس ؟ ؟

# الجواب

لابد لمن يريد أن يعرف جواب هذين السؤالين أن يعلم أولا أن هذه الأمور المسئول عنها لادخل للعقل ولا للقياس فيها ، لأنها أمور منها ما يتعلق بالعقائد ، ومنها مايتعلق بالعبادات ولاسبيل إلى معرفة الأمرين إلا من الشرع

وحيث اختلف الناس فى هذه المسائل وجب ردها الى ما أمر الله بالرد اليه من الكتاب والسنة فقال تعالى

( فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ) فقوله تعالى ( ذلك خير ) أى الرد إلى الله والى الرسول فيما اختلفتم فيه ، خير لكم فى دار الدنيا لأنه يبعدكم عن التفرق فى الدين الذى هو طريق المشركين ( وأحسن تأويلا ) أى أحسن مآلا وعاقبة يوم القيامة لأنه لانجاة إلا بذلك . وما دام هذا هو الميزان الذى أرشدنا الله إلى اتباعه، ووزن ما نختلف فيه من أمور الدين به ، فانجر علينا فى جواب هذين السؤالين . فنقول وبالله التوفيق :

إن الله عز وجل قد قال فى سورة الاسراء توبيخاً لمن سأله بالأنبياء والأولياء والصالحين والملائكة (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ) أى قل أيها الرسول للذين يسألوننى بعبادى من الأنبياء والأولياء والصالحين والملائكة ، أو يسألوهم دونى : نادوا الذين ظننتم من عبادى أنهم يستطيعون أن يجلبوا لكم نفعاً أو يدفعوا عنكم ضراً قبل أن ينزل بكم فيحولوه عنكم ، أو يكشفوه اذا نزل بكم ، واطلبوا منهم ما شئتم فانهم لا يملكون كشف الضر عنكم اذا نزل بكم ،

ولا تحويله عنكم إلى غيركم إذا أردت أن أنزله بكم . ولا بد من حمل الآية على ما قلناه وإخراج غير العقلاء من الأصنام وغيرها من هذه الآية وتخصيصها بالمقربين والمخلصين من عباد الله لقوله بعدها ( أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محظوراً ) أى أولئك المقربون والمخلصون الذين يدعوهم وينادیهم غير المقربين ، هؤلاء المقربون يطلبون القربة إلى الله تعالى أى التقرب بما شرعه لهم ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه . والأصنام وغيرها مما عبد من دون الله تعالى لا شأن لها بعلم الدين ولا بالعمل به لطلب التقرب ، ولا هى ترجو رحمة ولا تخاف عذابا . فتعين كما قلت حمل الآية على المقربين من عباد الله والصالحين . وقد بين الله أن المقربين لا يملكون لمن سألهم كشف الضر عنه بعد نزوله،ولا تحويله عنه قبل نزوله

وكما بين الله ذلك هنا بينه فى سورة الجن بقوله يخاطب رسوله ﷺ ( قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا ) والمفسرون متفقون على أن فى هذه الآية محذوفين وتقديرهما : قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، قلّ أو

كثر ، ولا رشداً ولا غياً ، أى ولا هدى ولا ضلالا ، قلّ أو كثر ، كما هو شأن وقوع النكرة فى سياق النفى ، فانها تعم القليل والكثير .

وقال تعالى فى سورة الفتح ( قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ) أى لا أحد من من عباد الله يملك لكم شيئاً من النفع فيجلبه لكم أو من الضرر فيدفعه عنكم متى أراد الله خلافه . فبين أن كل شىء مما يرجوه المخلوق أو يخافه موكول إلى إرادة الله عز وجل لا إلى عباده .

إذا عرفت هذا فاعلم أن سؤال أى مخلوق من المخلوقين بعد انتقاله الى الدار الآخرة عدوان على ما أنزله الله ، وخروج عن آيات كتابه ، وخال عن الفائدة ، وضلال بحكم القرآن ، لأن المسئول من الخلق بعد الموت لا يسمع سائله ولا يجيبه ، ويتبرأ منه يوم القيامة ، لأنه إما جماد ، وإما عبد مشغول بما هو فيه من أمور الآخرة كما قال تعالى فى سورة الأحقاف ( ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ) قال البيضاوى

فى تفسير الآية المذكورة : لاأحد أضل من داع يدعو غير الله مخلوقاً لا يستجيب له ذلك المخلوق دعاءه إلى يوم القيامة وهم أى المسئولون عن دعاء السائلين غافلون ، لأنهم إما جمادات وإما عباد مشغولون بما هم فيه من أحوال الآخرة.اه

فأنت ترى أن كلام المفسر صريح فى حمل الآية على العقلاء والأصنام وغيرها . وإذا كان الله قد جعل من سأل الموتى وغيرهم من المخلوقين من أضل الناس بسؤاله هذا ، فلا شك أن السؤال يكون ضلالا وحراماً ممن علم هذه الآية ثم سأل بعد ذلك .

وأما السنة فمنها عند بعض أصحاب السنن حديث ابن عباس فى منع سؤال غير الله تعالى وهو قوله ﷺ « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » صححه الترمذى وحسنه .

ومنها فى الصحيحين أنه ﷺ لما نزل عليه ( وأنذر عشيرتك الأقربين ) صعد الصفا ونادى بطون قريش ، فلما

اجتمعوا ناداهم بطناً بطنا فقال : « يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار فانى لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى مرة بن كعب - إلى أن قال يا صفية عمة رسول الله ﷺ أنقذى نفسك من النار فانى لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت ، أنقذى نفسك من النار فانى لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

ولم يثبت عنه ﷺ ولا عن أحد من أصحابه والذين اتبعوهم بإحسان ، ولا عن أحد من الأئمة المجتهدين الأربعة وغيرهم أنه ذهب إلى قبر نبى أو ولى أو صالح فسأل الله به أو سأله حاجة . قال صاحب الكنز من مشاهير متون الحنفية فى باب الحظر والإباحة — ما نصه « قال أبو حنيفة رحمه الله : أكره أن يقول العبد أسألك بأنبيائك ورسلك وبمعاقد العز من عرشك وبالبيت الحرام وبالمشعر الحرام » وقال مالك رحمه الله « ما رأينا أحداً من الأمة يذهب إلى قبر رسول الله ﷺ يسأله حاجة إلا أن عبد الله بن عمر كان إذا قدم من سفر ذهب إلى قبر النبى ﷺ فيسلم عليه وعلى أبى بكر وعمر ثم ينصرف » نقله القاضى اسماعيل فى كتابه المبسوط عن مالك رحمه الله بالسند الصحيح اليه .

وقال الشافعي رحمه الله « أدركنا أهل بلدنا يهدمون القبور بمكة فلا أجيز رفع القبر عن الأرض ولا تجصيصه ولا البناء عليه » . وحجته في ذلك حديث مسلم عن علىّ أن رسول الله ﷺ بعثه لهدم القبور والتماثيل ، فلما بعث عامله ليفعل ذلك قال له : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لاتترك تمثالا إلا طمسته ، ولا قبراً مشرّفاً إلا سويته . « مشرفاً : مرتفعاً عن الأرض »

إذا عرفت هذا فاعلم أن سؤال الله بخلقه ، أو سؤال خلقه حاجة من الحاجات حدث وبدعة من البدع التي لم تكن إلا بعد انقراض القرون الثلاثة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ أنهم خير القرون كما في جامع الترمذي عن عمر رضي الله عنه وكما في الصحيحين ، ونسوق لفظ الترمذي لاشتماله على زيادة ليست في الصحيحين « إن عمر رضي الله تعالى عنه خطب أصحابه بالجابية [1] فقال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً فقال : أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل وهو لايستحلف ، ويشهد الشاهد وهو لايستشهد . فعليكم بالجماعة

(١) موضع بالشام

وإياكم والفرقة . ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان . من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة . من سرته حسنته وأساءته سيئته فذلك المسلم »

وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أنه لا نجاة إلا للفرقة التى تكون على مثل ما كان عليه ﷺ وأصحابه . ولم يكن فى عهدهم سؤال الله بالمخلوق ، ولا سؤال المخلوق للمخلوق قضاء حاجة فوق ماجرت عليه الأسباب والسنن الإلهية بين الأحياء من سؤال بعضهم بعضاً الدعاء وما فى وسعهم أن يقضوه بعضهم لبعض من السعى فى الخير ودفع الضرر وغير ذلك من شؤون الدنيا التى أمرنا فيها بالسعى لأنها من باب التعاون على البر والتقوى .

والموتى لا شأن لهم بذلك ، وإن كانوا أحياء فى قبورهم لأنهم مشغولون بأحوال الآخرة ، بعيدون عن الدنيا وأهلها وشؤونهم كما قال عز وجل ( والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ) وهذا الوصف لا ينطبق إلا على العقلاء من الأموات لا على الأصنام ، لأنه لا يقال فى جانبها بعث ولا علم به ، وقوله ( غير أحياء ) أى الحياة

الدنيا المبنية على الهواء والأكل والشرب وارتباط الأسباب بمسبباتها فيها ، فلا يمشون بأرجلهم على أرضها ، ولا يرون بأعينهم ما يجرى فيها ، ولا يسمعون بآذانهم ما يكون من كلام أهلها ، ولا يتناولون بأيديهم ما يتناوله أهل الدنيا من البطش والقوة كما قال تعالى ( إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ) ثم بين الله سبحانه وتعالى على وجه التبكيت أنهم أضعف منا بعد موتهم فقال ( ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ؟ ) ثم أمر رسوله أن يعجزهم بطلبهم من الموتى أن يكيدوا رسول الله ﷺ إن كانت لهم أسرار وقدرة على كيده وهو يذم من سألهم فقال ( قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ) أى فلا تمهلونى فى إلحاق الكيد بى ممن تدعونهم إن استطعتم ( إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ) ولا يخفى أن الآية حصرت الولاية بالنصر والمعونة فى الله عز وجل فى الدنيا والآخرة .

# بيان عقيدة المشركين

## كما بينها القرآن الكريم

لم يكن المشركون يعتقدون فيمن يدعونهم من دون الله أنهم يرزقونهم أو يملكون لهم شيئا، أو يحيون أو يميتون أو يدبرون أمراً من الأمور، أو يملكون شيئا من السموات والأرض، أو يجيرون من يستجير بهم، بل كانوا يعتقدون أن هذه الشئون بيد الله وحده، كما قال عز وجل حاكياً عنهم عقيدتهم ( قل من يرزقكم من السماء والأرض؟ أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون؟ فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال فانى تصرفون ) أى إذا اعترفوا لك بأن الفاعل لهذا كله هو الله تعالى، فقل لهم ألا تتقون الله فلا تشركون معه فى الدعاء غيره؟

وقال تعالى فى بيان عقيدتهم وأنهم لا ينسبون شيئاً من التصرفات لغير الله تعالى ( قل لمن الأرض ومن فيها

إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله، قل أفلا تذكرون ؟. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله، قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون )

فقد ثبت من مجموع هذه الآيات فى السورتين يونس والمؤمنون أن المشركين لم ينسبوا شيئاً من التصرفات فى السموات والأرض لغير الله تعالى ، ولكنهم أشركوا بتحكمهم على الله فى تعيين من يدعونهم شفعاء ، مع أن الشفاعة موقوفة على مشيئة الله وإذنه لمن شاء من خلقه ، ولا يعلم لمن يعطى الإذن من خلقه بعد النبيين . والدليل على أن الشرك جاءهم من تعيين من يدعونهم شفعاء قوله تعالى فى سورة يونس ( ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ) والدليل أيضاً على أنهم لم يكونوا يعبدونهم لغير الشفاعة والتقرب إليه تعالى بهم قوله تعالى ( والذين اتخذوا من دونه

أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ) أى يقول المشركون اذا سئلوا عن سبب دعائهم لغير الله وعبادتهم إياهم : مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ، أى مانعبدهم طمعاً فى رزق أو جلب نفع أو دفع ضر ، فان ذلك كله لله ولكن نعبدهم للتقرب والاستشفاع بهم عنده .

وقد بين الله تعالى فى سورة الرحمن أن جميع من فى السموات والأرض يسألونه ما يحتاجون إليه ، فلا معنى لسؤال غيره من خلقه،لأنهم لا يملكون شيئاً من شئون الكون فقال ( يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ) أى إذا كانت الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحون يخصونه بالسؤال فلا معنى لسؤال غيره .

من هذا كله يتبين أن سؤال غير الله من الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين خروج على القرآن والسنة وعمل المهتدين من الأئمة ، وعبث لا فائدة منه للسائلين ( وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون )

# مبحث فى أمور ثلاثة لابد من معرفتها

الأول : الدعاء المذكور فى القرآن فى جانب الله تعالى أو غيره ، معناه الطلب بالنداء أو بالقلب أو بالعمل ، يدخل فيه العبادات كلها ، قولية كانت أو فعلية أو قلبية ، وليس منه نداء أهل الدنيا بعضهم لبعض ، فإنه ليس على وجه التعظيم ، ولا على وجه الطلب فيما وراء الأسباب التى رتب الله نظام الكون عليها ، ولهذا لو كلفت أحداً من أهل الدنيا بما ليس فى وسعه كنت مستهزئاً به ، كصعود السماء وحمل الجبال وشفاء المريض وإكثار الرزق وزيادة الأجل وقضاء الحاجة مما لايقدر عليه إلا الله تعالى،ولا يفعل ذلك عاقل لأنه عبث . والذين يسألون الموتى يطلبون منهم هذه الأمور ويقفون خاشعين أمام قبورهم أكثر من خشوعهم وقوفاً فى الصلاة .وما دام الله ورسوله قد بينا أن أمور الآخرة من السعادة والشقاوة لا يعلمها إلا الله تعالى ، فلا يصح لمخلوق أن يطلب من مخلوق شيئاً منها ( قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ وما أنا إلا نذير مبين ) فقولهم

إن النداء ليس عبادة باطل ، بل هو من العبادات القولية التى بها يضيع التوحيد القولى ،فإن المسلمين مجمعون على أن من قال يا الله فقد عبده بالذكر ، فمثله نداء غيره على وجه التعظيم . وفى صحيح الترمذى أن رسول الله ﷺ قال « الدعاء مخ العبادة » .

الثانى : ان التقرب الى الله تعالى بغير ماشرعه مردود على فاعله لا يزيده من الله تعالى إلا بعداً . وقد بين الله عز وجل أنه لا يقبل من عبد تقرباً إلا بالإيمان والعمل الصالح فقال ( وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ) وفى الحديث القدسى « ما تقرب إلىّ عبدى بشىأحب إلىّ مما افترضته عليه،ولا يزال يتقرب إلىّ عبدى بالنوافل حتى أحبه » فالعمل الصالح هو الفرائض التى فرضها الله والنوافل التى شرعها كالصلاة والصوم والصدقة وإغاثة الملهوف ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإحسان الى الفقراء ، وسنن الصلوات وغير ذلك .

بيان شرط كون العمل صالحا

وشرط كون العمل صالحاً مقبولا عند الله أن يشتمل على ثلاثة أمور : —

الأول : أن يكون مأموراً به من الله ورسوله ، لقوله ﷺ « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أى مردود على فاعله لا يقبله الله منه . رواه مسلم وأصحاب السنن عن عائشة .

الثانى : أن يخلص العمل لله، فلا يشرك معه غيره،لقوله تعالى ( فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا لله الدين الخالص ) ومثلها فى القرآن كثير .

الثالث : أن يؤديه على الوجه الذى شرعه الله ، لقوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ) سورة آل عمران

فهذه شروط ثلاثة لكون العمل صالحا ، ومنه يعلم أنه من تقرب إلى الله بشىء لم يشرعه مهما أخلص فيه فهو مردود عليه .

الثالث : أنه ﷺ لم يترك شيئا يقربنا إلى الله إلا بينه لنا ، فمن زاد فى هذا الدين شيئا على بيان الله ورسوله يزعم

أنه بدعة حسنة فقد ضل، ولذا قال مالك رضى الله عنه كما نقله عنه الشاطبى فى الاعتصام « من زعم أن محمداً ﷺ ترك شيئا مما يقرب إلى الله لم يبينه فقد اتهمه بأنه خان الرسالة »

فالذى يريد أن ينجو بين يدى الله يوم القيامة ويخرج بدينه سالما على الهدى فليقف عندما جاء به رسول الله ﷺ وليتبع ولا يبتدع ( قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم )

---